ظاهرةُ التّيْسير في النّحو الكُوفيّ...
أتحقيقٌ هي...أم تشْقيقٌ ؟

[نظرة على منهج الكوفة في تأصيل مسائل النحو وتيسير قواعده].

إعداد / الدكتور ابن حويلي ميدني

أستاذ علوم اللسان العربي بجامعة الجزائر 2 (بوزريعة)

كلية الآداب واللغات، قسم اللغة العربية وآدابها.

مقدمة:

إن صعوبات النحو وتدريسه قضية أزلية، شغلت، عبر القرون، مربّين ومفكّرين مجتهدين، بل وما انفكت تشغل بال الجميع، وإذن، فالشكوى متواترة من جيل إلى جيل، وهمّ تيسير النحو يؤرّق أصحاب الهمم، فكان فكر وكانت أنظار تربوية تصبو كلها إلى إيجاد قواعد "ميسّرة " مضبوطة، وجرى البحث متواصلا، في كنف علماء نابهين تباروا لإتمام المهمة.

وكان من نتيجة الحركات والمناقشات بروز ما عرف بالمذاهب الفكرية المتعدّدة والمتباينة، سميت مجازا مدارس رغم غرابة المصطلح. ومنها مدرسة البصرة، وهي الأولى بخصائصها المتميّزة، ثم مدرسة الكوفة، ولها مثل ذلك، ولكنها مخالفة، حتى إذا عسّرت الأولى وشدّدت يسّرت الثانية بمنطقها وسهّلت، وظهرت جوانب الخلاف في مشارب معيّنة، وعلينا أن نقبل مبدئيا بعض التناقضات غير المبرّرة، كأن تكون الأهداف والمنطلقات واحدة لكن النتائج تأتي مخالفة، كأني بوجود يد خفية تغيّر الأمور عن قصد لتخالف منطق الأشياء.

لقد علّمتنا المبادئ الأولية للفلسفة أن المقدمات إذا كانت صحيحة فإن النتائج ستكون حتما صحيحة، لكن في علاقات هذه المدارس في ما بينها، لا نجد لهذا المنطق إلاّ ولا اعتبارا، بمعني أن للمدرستين مهمة متحدة هي تأسيس القواعد النحوية وتطبيقها في إطار محاربة "اللحن"، وأخْذ اللغة الواحدة من منابع موحّدة، وحين استنباط الأحكام تتشعّب الآراء وتتطاير المصطلحات وتكثر الأقاويل وتجرف الأهاويل، ويكون النزاع ثم الصراع، من القاعدة إلى القمّة، وقد تكون النهاية دراميّة كوقْعة الكسائي وسيبويه في (المسألة

الدَّبُّورِيّة) الشهيرة، التي سجلها التاريخ منازلة مصيرية... وكنّا نحسبها أمورا مفتعلة متمحّكة تشبه الألعاب بين الأصحاب. وبقيت الإشكالية، حتى اليوم، مطروحةً في جملة تساؤلات: **هل تحقّقت منفعةٌ ما من تلك الاختلافات ؟ وهل تساهُل الكوفيين في قبول الرواية غاية أم وسيلة لحاجة أخرى؟ وما هي ؟ وما المنفعة التي جناها الدرس النحوي الكوفي من تلك الانفعالات ؟... أم هي جعجعة ولا طحين ؟**

[1] - مدرسة الكوفة:

1/ 1 - مفهوم المصطلح العام: "المدرسة" هو اسم مكان، يكثر فيه الدرس والمدارسة، ويتعلّم فيه الناس، علما أو تكوينا ما. وفي اصطلاحنا هي "مذهب" قائم على أركان محددة ومبادئ ومنهج واضح يعتنقه جماعة من المفكّرين والعلماء الدارسين أو الفنانين ملتزمين بخطّه والدفاع عن نهجه، فيكونون بالضرورة في صف واحد، يسيرون في وجهة واحدة، فيسمون حينئذ بأتباع هذه المدرسة وتلامذتها. وهذا المصطلح فلسفي فكري مستحدث، قد لا نجده في معاجم التراث كـ"لسان العرب" مثلا بالدلالة التي نريدها هنا. ولعل ذلك هو مبرّر عدم وجودها في "تعريفات الجرجاني"، ذلك المرجع المهمّ لكثير من مصطلحات التراث في هذا المجال. (1)

أما في المعاجم الفلسفية المعاصرة فقد رأيت قولَهم: "المدرسة بالمعنى الضيق جماعة من الفلاسفة لهم مذهب واحد ونظام واحد ومكان واحد للاجتماع ورئيس أو عدّة رؤساء يتعاقبون على التعليم. وقد تكون جماعة من العلماء أو الفلاسفة ينتسبون إلى مذهب واحد أو يدافعون عن مبدإ أساسي واحد. (2)

والمدارس النحوية مصطلح يشير إلى اتجاهات ظهرت في دراسة النحو، فاختلفت في مناهجها في بعض المسائل النحوية الفرعية، وارتبط كل اتجاه منها بإقليم معيّن، فكانت مدرسة البصرة، ومدرسة الكوفة، ومدرسة بغداد، ومدرسة الأندلس... ولم يكن لهذا الارتباط المكاني دلالة علمية خاصّة. ولم يؤثر عن علماء العربية القدامى أنهم عرفوا مصطلح (مدرسة)، في أي قطر من الأقطار التي اشتهرت بالدرس النحوي، ولكنهم قد عرفوا مصطلح (المذهب)، فعرفوا معنى مذهب الأخفش، ومذهب الفراء، ومذهب سيبويه... ولم يتمّ استعمال هذا المصطلح بشكل واضح إلا عند المعاصرين المتأخرين حين استعاروه للتعبير عن مواد الاختلاف والتمايز، ثم برز صارخا عند احتكاك ثقافتنا بالغرب في الأدب والفلسفة والعلوم الإنسانية، وصرنا نسمع مثلا: مدرسة الديوان، والمدرسة الكلاسيكية والرومانسية، والبنوية، والوظيفية، ومدرسة الغناء الحوزي، وكرة القدم الغربية، أو الشرقية، الأمريكية أو اليابانية... الخ.

وبهذا المفهوم الأخير نريد أن نشير إلى مقصود مصطلح (مدرسة)، وسنحاول بعد ذلك التعرّف عن الخصائص، والمقاصد، والميزات، وأن نعرض عيّنات من أبرز رجالاتها ومؤلفاتهم، ونخلص إلى ذكر بعض الآراء التي يُفترضُ كونُها خادمةً لموضوعنا.

1/ 2 - **حدود المصطلح الخاصّ:** اشتهر هذا المذهب في مدينة الكوفة، وإليها انتسب، وكانت هذه المدينة أهم مكان لتخريج العلماء، وإليه تشد الرحال في طلب العلم والرواية، في اللغة والأدب، فقد جاءها الطلاب من كل حدب وصوب، من شتى أركان البلاد الإسلامية الواسعة، ومنذ أمد طويل، لأجل (القراءة والقرّاء)، وقد بزّت غيرها من الأماكن في الرواية الأدبية، لما فيها من مشاهير القبائل الفصيحة، كبني تميم وبني أسد.

كما اشتهرت كذلك بكونها موطن القراء، وأول ما ظهر بها قراءة عبد الله بن مسعود [ت 32هـ/ 652م]، ذلك الرجل الذي كان أول من جهر بالقرآن بعد رسول الله ﷺ بمكة. وقد بعثه الفاروق عمر بن الخطاب [ت 23هـ/ 643م] في سنة 17هـ/ 638م، إلى أهل هذا البلد ليكون معلمَهم الأول، "ويفقّهُهُم في دينهم، فالتفّ الناسُ حوله، وكان بحْرا زاخرا من بحور العلم، كما كان متأثرا بطريقة عمر بن الخطاب في الاستنباط والبحث، والأخذ بالرأي عند افتقاد النص، مع الاحتياط والتحري في قبول الحديث النبوي".

لقد حدث ذلك قبل أن يجمع ذو النورين عثمان بن عفان [ت 35 هـ/ 655م] الأمة على رسم واحد وقرآن واحد، ولما جمع القرآن كانت مدينة الكوفة من بين البلدان الأوائل التي أرسلت إليها نسخة من المصحف الأمّ، وتمّ حرق باقي المصاحف، لأن فيها اجتهادات لم تعد مقبولة، كالقراءة باللهجات، وبعضها مما نسخت قراءته في العَرْضَة الأخيرة على النبي ﷺ.

ومن اهتمامات مدرسة الكوفة الأساسية كذلك، حرص علمائها على تتبّع غريب اللغة، ونقصد باللغة هاهنا ما كان متعلقا بالأدب ومدارسته والشعر ومطارحته، والرواية وأسانيدها والألفاظ ونطقها... ونرى هذا الجانب الأخير مهمّا جدا، وأكثر ما هو متعلّق بمستوى المعجم.

واللغة وفنونها أكثر ما يحتاج إليه أهل فقه اللغة، ثم الفقه الشرعي على وجه الخصوص، وبما أن اللغة هي مفتاح العلوم، كما يقال، وبما أنه لا يتوصل إلى فهم الشريعة إلا باللغة، ولأجل تحصيل مسائل الشّرع وفهم مقاصده، وإدراك معانيه وألفاظه، غطست الكوفة في محيط اللغة أكثر من البصرة، فبرزت في فهم أصول الدين وفروعه، انطلاقا من القراءات ورواياتها، وصولا إلى استنباط القواعد الشرعية والأحكام الفرعية، إلى ظهور المذاهب الفقهية وشيوعها، وهو الأمر الذي جعلها تشتهر أكثر من غيرها في هذا الميدان، وتتفوّق في كل الأزمان.

ومـن الأمـور الـتي تـثير الانتبـاه وتشـدّ الفكـر، ولم نجـدْ لهـا شـرحا وافيـا، هـو مـا تعلّـق بإشـكالية تفـوّق مدرسـة الكوفـة في القـراءات وأصـول الفقـه والروايـة اللغويـة المبسّـطة، ومـا أسباب تلك المرونة المعهودة عند علمائها في التعاطي مع مغاليق الرواية المستعصية، ومـع تيسـير الفتـوى في الاستشـارات المتعلّقـة بـأمور أدبيـة أو لغويـة استعصـى أمـر البـت فيهـا، وتصلّب في علاجهـا البصـريون وتشـدّدوا. وكـان مرونـة الفتـوى في روايـة الأشـعار القديمـة وتسـهيل قبولها والعمـل بهـا مـلاذًا للمتمحكين والمتفيهقين، وطُبِّق مبـدأ **"يسّـر ولا تعسّـر، وبشّـر ولا تنفّـر"** بالـذات عنـد الكـثير مـن الدارسـين دسـتورا يستشـهد بأحكامـه كـل مـن أحـبَّ المُـروقَ، و رامَ الخُروقَ لصرامة القواعد اللغوية البصرية وتشدّدها.

وكـان من نتيجة البحث في الرواية بأنواعهـا، اللغويـة والشـرعية، تفـوّق مـذهب الكوفـة، لغة وشرعا، وبرز عندهم مذهب فقهي، يعدّ من أهـمّ المذاهب الشـرعية الإسـلامية، عنـد أهـل السنة والجماعة، وهو مذهب أبي حنيفـة النعمـان بـن ثابت التيمـي الكـوفي [ت 150هـ/ 767م]. كمـا خرج من بينهم ثلاثة مـن القـراء السـبعة الـذين شـاعت قـراءاتهم في العـالم العربـي وهـم: عاصم [ت 32هـ/ 652م]، وحمزة، [ت 32هـ/ 652م]، والكسائي [ت 32هـ/ 652م].

1/ 3 - **الخصائص الذاتية لمدرسة الكوفة ومميزاتها:** يمكن القول بأن لكل مدرسة أو مـذهب فني مميزاتـه الـتي ينفـرد، أو يشـترك بهـا مـع غـيره مـن المـدارس أو المـذاهب، وبطبيعـة الحال فإن مدرسـة الكوفة لم تخرج عن هذا المنطق إذ اشـتركت مع نظيرتهـا البصـرية بـأمور عامة، ثم انفردت بـأخرى يمكـن اعتبارهـا سمـات تمييزيـة (Traits distinctifs) تـدخل ضـمن خصوصيات المدرسة الكوفية، التي لا ينازعها فيها أحد.

ومعلـوم مـن التـاريخ أن المدرسـة الكوفيـة جـاءت متـأخرة مـن حيـث النشـأة، ولا بـأس منطقيا، من أن يأخذ اللاحق عن السـابق، إلا أن أصـحاب هـذه المدرسـة مـا لبثـوا أن أوجـدوا لأنفسـهم مـذهبا خاصـا، كمـا سـبق الـذكر، وكـان لـه وزنـه المعتبر في درس اللغـة العربيـة خالصا، وفرض هذا الاتجاه كلمته، واستغنى بشخصـه المعنـوي وآرائـه وأنظـاره وثلّـة علمائـه، وتطوّر حتـى انتـزع الاعـتراف، قـديما وحـديثا، وحتـى أننـا لواجـدون مـن بـين البـاحثين العـرب المحـدثين، في وقـت مـا، مـن أشـاد بـذكر أفضـال هـذه المدرسـة، ونظـر إليهـا بعـين الرضـا والإعجاب، واعتبرها صرحا لغويا ونحويا قد سبق زمانه، إذ وافقت أنظاره وآراؤه ما جـاءت بـه البحوث المستحدثة والمناهج العصرية، لاسيما المنهج الوصفي اللغوي الحديث، وذلـك مسـتنبط من شهادة جملـة مـن البـاحثين العـرب، وفيهم أسـاتذة كبـار مثل: مهـدي المخزومـي في كتابـه (مدرسـة الكوفـة)، وعبـد الفتـاح الحمـوز في كتابـه (الكوفيـون في النحـو والصـرف)، وأحمـد أمين في كتابه (ضحى الإسلام).

ومميزات مدرسة الكوفة وخصائصها الذاتية هي من الكثرة بحيث لا يمكّنني حجم المكان من أن آتي على ذكر جملتها بسطا وتفصيلا ، وعليه فإني ذاكرٌ بعضَها فحسب، مثل:

1 - طابع الاتساع في الرواية.

2 - طابع الاتساع في القياس، حتى أنه ليمكنهم القياس على الشاذ النادر.

3 - طابع المخالفة في بعض المصطلحات النحوية وما يتصل بها من العوامل.

ولا يفهم من هذا الكلام بأن الصلة بين مدرسة البصرة، وهي الأم، ومدرسة الكوفة بالذات قد انفصمت عُراها ، أو خَفَتَ صداها ، بل ظلت العلاقة بينهما طيبة على مدى الأزمان، وبقي التأثير والتأثّر بينهما قائما ، تأخذ إحداهما عن الأخرى ما رأت من علم وما سمعت من معرفة ، وتبادل البعثات ما فتئ موصولا منذ الزمن الأول.

ويكفي التذكير بأن جلّ علماء الكوفة قد نهلوا من معين البصرة ، ورضعوا من حليبها الفصيح، وكمثال على ذلك هذا الكسائي، وهو رأس مدرسة الكوفة وشيخها ، قد أخذ العلم مباشرة عن الخليل بن أحمد الفراهيدي، وهو رأس مدرسة البصرة وشيخها ، وقرأ كتاب سيبويه وهو بصري، عن الأخفش وهو كوفي، ورحلة علماء الكوفة إلى البصرة لطلب العلم شاهدة ، ومنهم الفَرّاء ، وهو أستاذ النحو الكوفي، الذي رحل إلى البصرة ونهل من ينابيعها ، كما سنرى.

ومعنى ذلك أن ثلّة من كبار أئمة النحو الكوفي قد درسوا النحو البصري وفهموه، بعد أن أكبوا على قراءته واستخبار مدارجه وتعقيداته ، وسلكوا في فصوله وأبوابه مسالك البحث في نظرياته وبراهينه ومصطلحاته ، كفعلهم مع كتاب سيبويه ، مَعِين النحو البصري، الذي لا ينضب، وهو المسمّى (قرآن النحو). فإذا كان قد قيل يوما بأن نحو الكوفة عند الكسائي والفراء، ونحو البصرة عند سيبويه(3) ، وكلهم تتلمذوا عن الخليل البصري فإنه بالضرورة تكون الكوفة تلميذة البصرة. غير أن الكوفيين قد استطاعوا الاستقلال بعوامل تحدّد شخصياتهم إزاء مذهب البصرة ، وأن يبّنوا لأنفسهم مذهبا مستقلا يحوز طابعا خاصا متميّزا ومتفرّدا بنفسه.

وكان لطابع (الاتساع) في الرواية خطر كبير وأهميّة بالغة ، فهو الوعاء الذي قد نرجع إلى مفعوله كل ما كان من مميزات المدرسة الكوفية ، ونعني بالاتساع أخذهم عن كل العرب حاضرهم وباديهم، فعلماء العربية الكوفيون الذين ارتحلوا إلى جمع اللغة مباشرة ، وفي مقدمتهم الشيخ الكسائي، لم يكونوا يكتفون بالأخذ من فصحاء العرب وحدهم، الشيء الذي لا نجده في طبيعة المذهب البصري الذي يتشدّد كثيرا في الأخذ إلا من العربي البدوي

الفصيح، البيّن الفصاحة. وهذا السلوك في التوسّع هو الذي سميناه مبدأ (اليسر)، الذي كان من نتيجته دخول شذوذ كثير في النتائج والاستنباطات وكثرة الالتواءات، وغير ذلك مما يمكن أن يفتح الباب لكل تحجّج غير مأمون على سلامة القواعد الجمعية... وكانت هذه السلوكيات من الكوفيين سببا لحملة شعواء شنّها البصريون على هذا المذهب الفتيّ.

وبدأ الخلاف بين المدرستين يتّسع تبعا لذلك، وخاصة في مبدإ القياس ومرتكزاته في ضبط القواعد النحوية، فكان البصريون يشترطون في قبول الشواهد التي تستنبط منها القواعد أن تكون مضبوطة دقيقة، صارمة، ومليحة جارية على ألسنة العرب الفصحاء، كما يفضّلونها بدوية وافرة على ألسنة الأعراب سارية، ثم يرفضون ما شذّ عن قواعدهم ومقاييسهم، ويغلطون صاحبه، ولا يلتفتون إليه. بل وجد البصريون التشدّد هذا في الأخذ مفخرة على من سواهم، يدلّ عليه قول الرياشي (وهو من علماء البصرة): "نحن نأخذ اللغة عن حَرَشَة الضِّبَاب (والمقصود هنا البدو الخلّص) وأَكَلَة اليَرَابيع، وهؤلاء أخذوا اللغة عن أهل السّواد أصحاب الكَوَاميخ، وأَكَلَة الشَّوَارِيز (أي عرب المُدُن)".(4)

ومعنى ذلك أن الكوفيين يعتدون بما يأخذون عن (حَضَر) العرب، وفيها بالضرورة (أقوال وأشعار شاذة)، مما يتحرّج البصريون في الأخذ بها، الشيء الذي جعل القواعد والأنظار النحوية بين المدرستين تتضارب وتختلف، وحتى قال علماء العربية القدماء أنه "لو سمع الكوفيون بيتا واحدا فيه جواز شيء مخالف للأصول جعلوه أصلا وبوّبوا عليه".(5) وهو الذي لا يجيزه البصريون ولا يقيّمون لفاعله وزنا.. تماشيا مع منطقهم الخاص الذي أقروه ولم يحيدوا عنه، أي أنهم "كانوا وراء تثبيت الظواهر اللغوية بعقلانية تامة، ومحاولة صب ذلك في قوالب ممنطقة، بحيث يخضع لها الكلام العربي في استعمالاته الغالبة، وما خرج عن هذه المنطقية حكم عليه بالشذوذ ". (6)

وتوسّعُ مدرسة الكوفة في الرواية والقياس، حملها على أن تأخذ من أي كان دون تدقيق ولا تفريق، وهو اتهام أكاله بالجزاف أصحابُ النزعة البصرية القائمة على الطابع (الكلاسيكي) المتشدّد في البحث عن نقاوة المصدر، وسلامة العرق، وصحّة المنهج، مما جعل منهجَ البصرة أحوطَ قياسا منها، لطلبها العموم والاطراد في قواعدها ولتثبّتها في الرواية وأخْذها عن الفصحاء الذين تخلّصت عربيّتُهم من شوائب التحضّر.

1/ 4 - **مصطلحات مستحدثة في النحو الكوفي:** والحق أن كثيرا من المصطلحات التي ابتكرها الكوفيون كانت لمجرد الخلاف بينهم، وبين نظرائهم في البصرة، كالحديث عن عملهم في تمييز الحركات الذي كان مخالفا تماما للبصريين. فالبصريون مثلا ذكروا من المصطلحات: الرفع والنصب والجر والجزم للمعرب، والضم والفتح والكسر والسكون

للمبني فلجأ الكوفيون إلى قلبها وعكسها.

وبهذه الكيفية يكون الكوفيون قد تعاوروا آراء جديدة في قضايا نحوية لا زالت شائكة مثل (العوامل والمعمولات)، وهي قضية من صميم المنطق، وتجد لها صدى بعيدا في مجال التدوير والتحوير، ومحك التلفيق والتزويق، فكثر حولها الجدل، وتشقق الكلام أكثر، والنتيجة أن اتسعت فجوة النقاش، وكثرت تشقيقات المصطلح، صورية أكثر منها جوهرية. والهدف أن يظهر الكوفيون اجتهادا حتى يغدو مذهبهم مدرسة نحوية مستقلة، تنافس منزلتها، ولو شكليا، منزلة المدرسة البصرية، بَلْهَ أن تتفوّق عليها في ما تعلّق بتيسير النحو وجمهرته.

والواقع أن تميّز نحو الكوفيين بمصطلحات تغاير مصطلحات البصريين قد ورد بالفعل ونفذ إلى مضمار الاستعمال، ومنه مصطلح "الخلاف"، وهو عامل معنوي يجعلونه علة النصب في الظرف، إذا وقع خبرا مثل: "العدو أمامَك، والبحر وراءَك"، بينما يجعل البصريون الظرف متعلقا بمحذوف خبر. وكذلك اصطلاح "الصرف الذي هو علة نصب المفعول معه، بينما يذهب جمهور البصريين إلى أنه منصوب بالفعل الذي قبله...

وقد ذكر كثير من علماء العربية أوجه الاختلاف هذه وخصّوها بالإحصاء والشرح والتفصيل في مصادر عديدة كتبوها، قديمة وحديثة، ولا داعي لإعادتها ذكرها ها هنا، ولكن بعض الأمثلة قد تنير درب موضوعنا، ومما نستأنس به أن ابن النحاس من خلال الإعراب كان كثيرا ما يشير إلى مجمل الاختلافات في تسمية المصطلح النحوي بين البصريين والكوفيين فردا أو جماعة، ومن أمثلته نجتزئ إعرابه لقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة الفاتحة، الآية2] (7)، حين ذكر أن الكسائيّ يسمّي حروفَ الخفْض (صِفَاتٍ)، والفرّاء يسميها (مَحَالّ)، والبصريون يسمونها (ظروفًا)، ومنها أيضًا إعرابه لقوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾[سورة آل عمران، الآية 142]. (8)، حيث في إعراب قوله تعالى: ﴿ وَيَعْلَمَ ﴾ قال: هو عند الخليل منصوبٌ بإضمار(أن)، وقال الكوفيون: هو منصوب على الصّرْف.

وظهور مثل هذه الاختلافات ليس من باب التعقيد، وإنما هو من باب الاجتهاد في التخفيف عن المتعلمين، فمثلا حينما يستعمل أحدهم مصطلحا من زاوية، يستعمله الثاني من زاوية ثانية، مراعاة للمذهب المستعمل بين طلابه، فهذا ابن النحاس استخدم مصطلح (لا) النافية للجنس، بينما العكبري استخدم مصطلح (لا التبرئة)، وهو مصطلح كوفي.

ومن خلال استعمال المصطلحات يمكنك كشف المذهب السائد في البيئة الثقافية المعيّنة بالدرس، أو معرفة نفسية المؤلف أو الدارس وما يناصره من المذاهب. وقد انعكس بالفعل ذلك على النحاة المتأخرين من المدارس النحوية البغدادية والمصرية والأندلسية... ولاحظنا في كتاباتهم زوايا الميل والانحناء، أو التفضيل والانتماء، وقد لا يكون هذا ولا ذاك، ولكن تيسير النطق وقربه إلى التداول والعادة اللفظية هي التي ترجّح كفة مذهب على آخر، والله أعلم.

وإليك بعض المصطلحات المعروفة لدينا ذات الأصل البصري، وكيف سمّيت عند الكوفيين، وحَاوِلِ الموازنةَ بينهما، فلعلّك مُدْرِكٌ بعضَ أسباب تفضيل مصطلح عن غيره:

المصطلح البصري الأصل	المصطلح الكوفي المقابل
اسم الفاعل	الفعل الدائم
الصفة	النعت
الشركة	عطف النسق
البدل	الترجمة، التكرير
التمييز	التفسير
حروف النفي	حروف الجحد
لا النافية للجنس	لا التبرئة
الفعل الواقع	الفعل المتعدي
الفعل المبني للمجهول	الفعل الذي لم يسم فاعله
التوكيد	التشديد
الحال	القطع
الأسماء الستة	الأسماء المضافة
المفعول لأجله	التفسير

1/ 5 - **من أبرز علماء النحو في مدرسة الكوفة:** لقد علمنا أن نشاط الكوفة قد بدأ متأخرا عند الكسائي (رأس المدرسة)، فهو من استطاع وتلميذه (الفراء) أن يصنعا من الكوفة مدرسة نحوية تستغل بطوابعها الخاصة، كما رأينا، بميزة الاتساع في الرواية،

وبسط القياس وقبضه، والتوسع في تخطئة بعض العرب، وإنكار بعض القراءات الشاذة، ثم وضعا بعض المصطلحات الجديدة المناسبة.

ولننظر هذا التشجير (أسفله) لمعرفة الأصول والفروع، ونتبيّن مكانة علماء الكوفة بين سائر علماء العربية المشهورين بآرائهم وتأثيراتهم في مسار النحو وإعرابه.

وزيادة في توضيح الغرض يمكن أن نترجم لبعض الشخصيات العلمية ذات الوزن الثقيل في ميزان المدرسة الكوفية، ولا بأس علينا من التركيز على علمين بارزين هما: الكسائي والفرّاء، فإني لم أجدْ في الباقين مَنْ سما سُمُوَّهما، و لاَ مَنْ علا قدرَهما.

1 - الكسائي: هو علي بن حمزة بن عبد الله بن بهمن بن فيروز الأسدي، فارسي الأصل، كنيته أبو الحسن، ولقبه الكسائي. واختلفوا في أسباب التلقيب، وسئل هو يوما عن ذلك فأجاب: " لأني أحرمت في كساء". وقيل: لأنه كان يلبس في مجالس القرّاء كساءً أسودَ ثمينًا. وُلِد بالكوفة سنةَ 119هـ/ 737م. وتدرّج حتى صار إماما انتهت إليه رئاسة الإقراء بالكوفة بعد حمزة الزَّيَّات. وقراءته إحدى القراءات السبع المتواترة.

أخذ النحو عن أبي جعفر الرؤاسي، وعن الخليل بن أحمد. وله تآليف كثيرة منها: كتاب مختصر النحو، وكتاب الحدود في النحو، وكتاب ما تلحن فيه العوام.

يعدّ الكسائي رأس مدرسة الكوفة دون منازع، وإمامها، وواضع رسومها ومناهجها، ولعل الدافع الذي جعل الكسائي يفسح في العربية للغات الشاذة أنه من القراء، وكانت تجري في قراءاته حروف تشذّ على قواعد النحو، فخشي أن يظن بهذه الحروف أنها غير جائزة مع أنها مروية عن الرسول ﷺ وجميعها صحيح، ولهذا السبب توسّع الرجل في قواعد النحو.

كما اشتهر بتوسّعه في القياس، وقد يدلي أحيانا بأحكام دون شواهد تسندها من اللغة، ومما جرى في الندرة على ألسنة بعض العرب، والحاصل أن الكسائي إمام مدرسة الكوفة وواضع أسسها، القائمة على الاتساع في القياس والرواية والنفوذ إلى أحكام وآراء لم تقع في خاطر البصريين سواء سندتها الشواهد أم لا، مع كل ما يمكن من مخالفتهم في توجيه الأعراب في الصيغ والعبارات.

أثنى عليه الشافعي في مسألة حذق النحو، إذ قال: مَن أرادَ أن يتبَحَّرَ في النحو فهو عيال على الكسائي. وقال ابن الأنباري اجتمعت في الكسائي أمور، منها أنه: "كان أعلم الناس بالنحو والعربية والقراءات، وكانوا يكثرون عليه في القراءات، فجمعهم وجلس على كرسي، وتلا القرآن من أوله إلى آخره وهم يستمعون، ويضبطون عنه حتى الوقف والابتداء".

ومن أشهر تلاميذه أبو عُبَيْد القاسم بن سَلاَّم، (ت222هـ/ 836م) الذي يُعدّ رأس مدرسة الموضوعات المعجمية، ومعجمه في المعاني من أوائل المعاجم العربية التي عالجت المادة على منهج ترتيب "الحقوق الدلالية"، فعُدّ رائدَ العربية في الباب.(9)

عاش الكسائي 70 سنة، وتُوفِّي بالرّيّ، بقرية أَرَنْبُويَة- جنوب شرقي طهران- سنة 189هـ / 805م، في اليوم نفسه الذي توفي فيه الفقيه محمد بن الحسن الشيباني، صاحب أبي حنيفة، في خلافة هارون الرشيد، ودُفنا بهذه القرية، وكانا قد خرجا مع الرشيد، فحزن عليهما (الرشيد) حُزْنا شديدا، وقال قولته المشهورة: " دفَنَّا الفقهَ والنّحوَ بالرَّيِّ". رحمهما الله، وأدخلهما فسيح جنانه.

2 - **الفراء:** هو أبو زكريا، يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الدَّيْلَميّ الكوفيّ، مولى بني أسد أو بني منقر. فارسي الأصل. ولد بالكوفة سنة 144هـ/761م.

هو إمام الكوفيين في النحو وأعلمهم باللغة وفنون الأدب. يَظُنّ من لا يعلم أن الفرّاء اشتهر بهذا اللقب، لأنه اشتغل بصناعة الفراء، والحقيقة غير ذلك، وقيل إنه لقّب بهذا لأنه كان يفري الكلام. ولما اشتهر الكسائي رحل الفراء إليه في بغداد ولزمه، وتصدر للتدريس وأستاذه الكسائي على قيد الحياة. أكثر الأخذ عن أبي جعفر الرؤاسي، وعن يونس بن حبيب الضبي، وقيل إن عقله كان أدقّ وأخصبَ من عقل الكسائي، قادرا على الاستنباط والتحليل وتخريج القواعد والأقيسة مما جعله يخالف نحاة البصرة في كثير من الأصول، يوضع مصطلحات لها جديدة.

وأكثر الفرّاءُ من التبديل والتغيير في المصطلحات النحوية التي وضعها الخليل وسيبويه، مستعينا بعقله المتفلسف الخصب، حتى استطاع أن يكوّن مدرسة مستقلة في النحو في الكوفة، غير أنه لم يكن استقلالا كاملا، لاعتمادها على الأسس التي وضعتها البصرة، ولكنها، على كل حال، محاولة للتميز والتفرّد. وقد ساهم الفراء من خلال آرائه ومصطلحاته التي تخالف البصريين وسيبويه، وقد تخالف أستاذه الكسائي، وعذره أنه كان يرغب في أن يتشكل النحو الكوفي في صيغته النهائية، وفضل الرجل واضح لا يقمط.

وقيل: إن المأمون أمر الفرّاء بأن يؤلف ما يجمع به أصول النحو، وأفرده في حجرة، وقرر له خدَما وجواريَ وورّاقين فكان يملي في ذلك سنين. ومن جهة أخرى يقال إن المأمون قد وكل الفراء ولديه يلقنهما النحو، فأراد القيام، فابتدرا إلى نعله، فقدم كل واحد فَرْدَة، فبلغ ذلك المأمون فقال: لن يكبر الرجل عن تواضعه لسلطانه وأبيه ومعلمه.

قال ابن الأنباري: لو لم يكن لأهل بغداد والكوفة من النحاة إلا الكسائي والفراء لكفى. وقال بعضهم: الفرّاء أميرُ المؤمنين في النحو.

وللفرّاء تصانيفُ كثيرةٌ، أشهرُها كتاب (معاني القرآن)، وقيل: إن كتبه كلها قد أملاها حفظا. وقال سلمة بن عاصم: إني لأعجب من الفرّاء كيف يعظّم الكسائي، وهو أعلم بالنحو منه. مات الفراء بطريق الحج سنة 207 هـ/ وله ثلاث وستون سنة، رحمه الله.

1/ 6 - **استقلالية النحو الكوفي:** إن كان بدْء النحو الكوفي حقيقة بالكسائي وتلميذه الفراء، فهما اللذان وضعا حجره الأساس، وأصّلاه بحذقهما وفطنتهما، فرسّما خصائصه المميّزة التي قد استقلّ بها عن النحو البصري، ويرجع الفضل إلى دقّة نظرهما في قواعده، وقد فهما الأسباب التي تُعلي بنيانه، فعملا على تأسيسها وإعلاء شأنها بالتأليف والتدريس وحذق الصنعة.

وإن كان معظم ما رأينا من كتب (نحو) المتقدمين هي من صناعة رجال البصرة ومفكّريها، مثل (كتاب) سيبويه، وكتاب المقتضب للمبرّد، وكتب الفارسي، وكتب عثمان ابن جنّي، وإن كانت كتب النحويين الكوفيين قليلة نادرة، فإنها محكمة سهلة، مما أسهم، بشكل ملموس، في انتشار مسائلهم ورواج كتبهم، ومن أعلى تلك المصادر قدرا كُتُب: معاني القرآن الفراء، ومجالس ثعلب، وكُتُب أبي بكر بن الأنباري: الزاهر، والوقف، والابتداء، والأضداد... وغيرها.

وإذا تقدّمنا قليلا وجدنا من الكوفيين المتأخرين من بقي يناضل في سبيل إبقاء صوت المذهب عاليا، كما فعل (الأخفش) الذي ألهم الكوفيين المتأخرين الاعتداد بالقراءات الشاذة للذكر الحكيم، مما يجعله بحق الموجّه الحقيقي للكوفيين في تحديث مدرستهم، من حيث أخذهم بالقراءات الشاذة، والاعتماد على الشواذ مخالفة لسيبويه وأستاذه الخليل. ثم إن الفراء يقوم في الكوفة مقام سيبويه في البصرة، فهو الذي أعطى المدرسة الكوفية تشكّلها النهائي، إلا بعض إضافات زادها كوفيون من بعده.

[2] -ذكر بعض الأنظار من كتاب الإنصاف في مسائل الخلاف

وبإجماع القدماء فإن (نحو) الكوفيين يشكّل مذهبا مستقلا، والدليل اهتمام علماء ذلك الزمان بالتصنيف فيه وتلمّس ما جاء من اختلافات بينه وبين المذهب البصري، و ذكر القواعد المميزة لكل منهما. ومن أجلّ المصنّفات وأعظمها قدرا كتاب "الإنصاف في مسائل الخلاف" الذي ألّفه الشيخ كمال الدين أبي البركات، عبد الرحمن بن محمد الأنباري، المعروف (بابن الأنباريّ)، النحوي، المتوفّى في سنة 577هـ/1181م، وقد عرض فيه للخلاف ما

بين المدرستين في 121 مسألة، ودلّل، بكفاية، على استقلال مدرسة الكوفة عن البصرة.

ومن أراد المزيد فليعدْ إلى الكتاب، فهو مطبوع منشور منذ مدة، وآخر ما رأيتُ نسخة حديثة الطبع، من تقديم حسن حمد وإشراف إميل بديع يعقوب، في جزأين، نشرتها دار الكتب العلمية، ط1 / 2007م.

وإليك باختصار بعض القطوف الدانية من هذا الكتاب المشهور في بابه:

1 - الاختلاف في رافع المبتدإ ورافع الخبر. فقد ذهب البصريون إلى أن العامل في المبتدإ المرفوع هو الابتداء، أما الخبر فذهب جمهورهم إلى أنه مرفوع بالمبتدإ، وقال قوم منهم إن الخبر مرفوع بالابتداء، مثله في ذلك مثل المبتدإ. وذهب الكوفيون إلى أن المبتدأ يرفع الخبر والخبر يرفع المبتدأ، فهما يترافعان.

2 - مسألة "نعم" و"بئس". ذهب الكوفيون إلى أنهما اسمان، وذهب البصريون إلى أنهما فعلان ماضيان لا يتصرّفان.

3 - التعجّب من السواد والبياض، فقد أجازه الكوفيون ومنعه البصريون.

4 - تقديم خبر "ما زال"، وأخواتها عليها، فقد أجازه الكوفيون ومنعه البصريون.

5 - تقديم خبر " ليس" عليها، فقد منعه الكوفيون وأجازه البصريون.

6 - أصل الاشتقاق، فقد ذهب الكوفيون إلى أن أصل المشتقات هو الفعل، وذهب البصريون إلى أنه المصدر هو الأصل.

7 - وقوع الفعل الماضي حالا، فقد أجازه الكوفيون ومنعه البصريون.

8 - نداء الاسم المحلى بـ " ال"، فقد أجازه الكوفيون ومنعه البصريون.

9 - ترخيم الاسم المضاف، والاسم الثلاثي، فقد أجازهما الكوفيون ومنعهما البصريون.

10 - اسم " لا " المفرد النكرة، فقد ذهب الكوفيون إلى أنه معرب منصوب بها، وذهب البصريون إلى أنه مبني على الفتح في محل نصب.

خاتمة:

إن كل ما ذكرنا هو قليل من كثير، وإن اجتهادَنا في جمع قدْر من المعلومات قد لا يكفي لاستنباط أحكام قيّمة تكون مغنية عن البحث في غيره، ولكنه اجتهاد المقلّ، فعسى أن تكون الملاحظات والشروح والأحكام والاستنباطات والدلائل والعروض التي

قدمناها هنا كافية، ونبراسا لمن يريد أن يتعمق مسارب البحث في هذه المدرسة العتيدة.

لقد خرجنا بنظرة مفادها أن هذا المذهب، عميق الغور، وأن الباحث فيه مهما علت سمته، وارتفع قدره في معرفة المناهج وسطّر خُطط يريد الإحاطة بحدود هذه المدرسة فلن يتمكّن من تحقيق بغيته بالسهولة التي يفترضها جدلا، إلا إذا أُيِّد بمدد غير الوسائل التي عرفنا، وبإرادة غير الإرادة التي ملكنا، ثم لمّ شمله وشمّر عن ساعدي الجدّ واستعدّ لدفع ضريبة الكدّ.

ولا نزعم أبدا أننا وصلنا إلى مرادنا، ولكنا حاولنا، وما زلنا نحاول، فهم ما لهذه المدرسة من خصائص ومميزات ومنهج وعلماء وتأسيس ومنافسة ونقّاد، قد ذَكروا ما ذَكروا...

والذي وقَرَ في النفس هو أن هذا مذهبٌ أصيلٌ، قد جعل من أهدافه تأصيل النحو العربي وتسهيله، وخلق حقيقة ملموسة تجلّت في مقاصد العلماء المؤسسين، فحققوا بذلك أتباعا ومريدين سهلوا العلم لطالبيه، وثبَت بالدليل أن ظاهرة تيْسِير النحو في المذهب الكوفي هي تحقيق لغرض تربويّ سامٍ، ولم تكن على الإطلاق عرَضًا من أعراض تشقيق المتكلمين، أو تشدّق المتفيهقين.

وأخيرا، فإنه مما يستحق العناية وحسن الدراية القولُ بأنَّ المصطلح النحوي عند نُحاة الكوفة لم يأخذ حقّه من التمحيص، وهو لا يزال أقل حظا من غيره في الدراسة البحثية المعاصرة؛ لذلك فإني أهيب بالباحثين الشباب أن يُولوا الموضوعَ عنايتَهم، لاستيفائه حقَّه من الدرس والتدقيق... والله المستعان.

مصادر البحث و مراجعه

- **القرآن الكريم، برواية الإمام حفص.**

1 - إبراهيم السامرائي، المدرس النحوية أسطورة وواقع، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان 1978م.

2 - ابن النحاس، محي الدين أحمد ابن النحاس، إعراب القرآن، تحقيق عبد المنعم خليل إبراهيم، دار الكتب العلمية، 2008م، ج1.

3 - ابن حُوَيْلي مِيدْني، المعجم اللغوي العربي من النشأة إلى الاكتمال، ط. دار هومة للطباعة والنشر، الجزائر 2003.

4 - ابن الأنباري، عبد الرحمن بن محمد الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف، تقديم حسن حمد وإشراف إميل بديع يعقوب، نشر دار الكتب العلمية، ط1 / 2007م.

5 - جميل صليبا ، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني بيروت 1979م.

6 - محمد الشريف الجرجاني، التعريفات. مكتبة لبنان بيروت 1990م.

7 - مهدي المخزومي، مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو، نشر مكتبة مصطفى البابي الحلبي بمصر، ط2/ 1958م.

8 - صالح بلعيد، في قضايا فقه اللغة العربية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995م.

9 - السيرافي، أبو سعيد الحسن بن عبد الله، أخبار النحويين البصريين ومراتبهم، تحقيق محمد إبراهيم البنا. دار الاعتصام.

10- السيوطي، جلال الدين، الاقتراح في علم أصول النحو، تقديم وضبط أحمد سليم الحمصي، ومحمد أحمد قاسم، مكتبة الفيصلية، ط1/1988م.

الهوامش:

(1) محمد الشريف الجرجاني، التعريفات. مكتبة لبنان بيروت 1990.

(2) جميل صليبا ، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني بيروت 1979، ص 358

(3) ينظر مهدي المخزومي، مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو، نشر مكتبة مصطفى البابي الحلبي بمصر، ط2/ 1958م، ص 163

(4) أبو سعيد الحسن بن عبد الله السيرافي، أخبار النحويين البصريين ومراتبهم، تحقيق محمد إبراهيم البنا ، دار الاعتصام. ص99

(5) السيوطي، الاقتراح في علم أصول النحو، تقديم وضبط أحمد سليم الحمصي، ومحمد أحمد قاسم، مكتبة الفيصلية، ط1/1988م، ص 200

(6) صالح بلعيد، في قضايا فقه اللغة العربية، ديوان المطبوعات الجامعية الساحة المركزية بن عكنون، الجزائر، 1995، ص 146.

(7) ابن النحاس، إعراب القرآن، ج1، ص17.

(8) المصدر نفسه، ج1، ص182.

(9) يراجع ابن حُوَيلي مِيدْني، المعجم اللغوي العربي من النشأة إلى الاكتمال، ط. دار هومة للطباعة والنشر، الجزائر 2003. ص 131